

الآثار الدينية والاجتماعية للأزمة في مالي



د. عبد الرحمن عبد الله سيسي *

إنَّ قيمة الأحداث وأهميَّتها تظهر في العلاقة المتينة التي تربط بينها، وفي الآثار المختلفة التي تخلّفها، ولا يتأتّى الوقوف على الآثار الإيجابيَّة أو السلبيَّة إلا بمعرفة الأحداث، وفهم أسبابها وأغراض أصحابها.

ومن هذا المنطلق؛ عالجت هذا الموضوع في المحاور الآتية: التطوّر التاريخي للأحداث وأسبابها، والآثار الدينية والاجتماعية للأحداث، والحلول المقترحة لمنع تلك الآثار أو تخفيفها، وخاتمة.

أولاً: التطوُّر التاريخي للأحداث وأسبابها:

حاز سكّان غرب إفريقيا حظاً وافراً، حيث مَنَّ الله عليهم بوصول الإسلام في وقت مبكّر من نزول الوحي بالدين الخاتم؛ إذ يربط المؤرخون وصول الإسلام إلى السودان الغربي (غانة و تكرور) بحملات عقبة بن نافع الفهري في السنوات الهجرية (٢١هـ ، ٢٢هـ ، ٢٣هـ)، ولكن الجيش الغاني تصدّى لها دون دخول الإسلام في المنطقة[١].

ولعلّ هذا التاريخ لا يخلو من المبالغة، لكن مع ذلك تؤكّد مصادر التاريخ هجمات الأمويين المتكررة على المنطقة فيما بين سنة ١١٦هـ - ١٣٣هـ الموافق ٧٣٤ - ٧٥٠م، وذلك بعد أن استتبَّ لهم الأمر في المغرب، وأحكموا السيطرة عليه[٢]، وتؤيد بعض الاكتشافات الأثرية هذا الوصول المبكر للإسلام، حيث وُجدت قبور في قرية «كاجي» الواقعة غرب مدينة «غاو» تُسمّى «قبر الصحابة».

امتاز الإسلام في هذه المنطقة بأنه دين الملوك وعلية القوم؛ إذ هم السابقون إليه، ولذلك استُقبل المسلمون العرب واللغة العربية بحفاوة، حتى امتزج العرب بالشعوب السودانية، وتلاقحت الثقافات الإفريقية بالثقافة الإسلامية واللغة العربية والتحمت حتى استحال الفصل بينها، فلو جرِّدت اللغات السودانية (سنغاي وبمبارا وفلاتة... إلخ) من الألفاظ العربية المقترضة لافتقرت، ولو مُحيَت الحضارة والثقافة العربية الإسلامية من تراثها لأصبحت أمة بلا حضارة.

أنشأ المزارعون السود ممالك وإمبراطوريات منظَّمة، ومراكز تجارية متطوِّرة، تربط المنطقة بالمغرب ومصر، وأصبحت اللغة العربية لغة الثقافة لدى السودانيين، يتحدّثون بها بطلاقة في المدن وخارجها، ويقرؤون بها القرآن الكريم، ويتداولون من خلالها قطوفاً من التراث العربي[٣].

وعلى سبيل المثال يسمّي الشعب السوداني «كلّ ما هو إسلامي بأنه سوداني: الكتابة العربية، الهلال، والسَّنة»، وشعب سنغاي يُطلق على الشهور العربية والهلال الإسلامي اسم: Koyra Handou ؛ أي الشهر البلدي، والماندنجو يُطلق عليها شهور السود Farafin Kalo [٤].

الاحتلال الفرنسي الصليبي ومكره بالمنطقة:

استغل المستعمر الفرنسي كلّ الوسائل الممكنة لاجتياح هذه المنطقة الإسلامية، من بعثات تبشيرية فقوّات عسكرية، ولم ينجح في إقناع السود، ولم يقدِر على استمالتهم حتى غادر البلاد كرهاً[٥].

يُعدُّ أسر الإمام ساموري توري عام ١٨٩٨م القضاء الحقيقي على الكفاح الشعبي ضدَّ المستعمر؛ حيث أحكم المستعمر الوثاق على الأنظمة التقليدية حتى الاستقلال في ١٩٦٠م، ولكن لم يجد منفذاً إلى قلوب السكان المسلمين الذين غرس فيهم الدين الإسلامي وحُبّ الحرية

(*) أستاذ النحو الوظيفي، جامعة الآداب والعلوم الإنسانية، بماكو، مالي.

(١) راجع: مالك انجاي: رسائل الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا، منظمة الدعوة الإسلامية، سنة ١٤١٧هـ، ص ١.

(٢) راجع: أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط ٢، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٢م، ج ٦، ص ١١٤.

(٣) انظر: djibril tamsir, le Soudan occidental, ou temps de grand empires xi – xvi, P١٥.

(٤) نفسه، ص ٤٥.

(٥) نشر Faudherb بعثاته الأولى على أرض السودان منذ ١٨٥٠م، بصحبة رحلة النقيب Engene mage.

والشـرف اتجاهاً سلبياً ضدَّ الفرنسـيين وكلّ مستعمر، ونظـروا إلـى كلّ ما كان يأتي من فرنسـا بعين الغضب؛ لأنه من مصدر نصراني، ويُسمُّونهم بالمصطلح الإسلامي «النصـارى»، ويكرهون مَن والاهم أو تَشـبَّه بهم ولو في الملبس، حتى غادرت قواتهم المسـلّحة أرض مالي كُرها في يناير ١٩٦١م.

علـى الرغم من هذا الرفض الشـعبي للمسـتعمر الفرنسي فإن النعاس لم يعرف طريقه إلى عيون الفرنسيين، ولم يجد اليأس مَمرًّا إلى قلوبهم، فخطّطوا لمشروع العودة ببراعة وقدرة فائقة، عن طريـق التفريق بين إخوة الدين الواحد، وزرع الفتنة بين أهل البلد الواحد، فقاموا بتقسيم الدولة إلى شمال وجنوب، يتقاتلان ويتناحران.

وقد سَـوَّقت فرنسا لهذا المشـروع، وأولتْه اهتماماً كبيراً إعلامياً وإدارياً وسياسـياً، وأعدَّت له رجالاً يحظون بمكانة اجتماعية محليّة مثل «محمد محمود ولد الشيخ»، الذي يُعدُّ المنظـر الوطني الحقيقي لدولة (O.R.C.S)، والتي يرى تكوينها من الأقاليم الشـماليّة لمالي، ومنطقة دوري ببوركينافاسـو، ومنطقة تِيلا بيري بغرب جمهورية النيجر.

وزعم «محمـد محمود» أنّ سـكان هـذه المناطق (سـنغاي، فلاتـة، طوارق، عـرب) يختلفون عن سـكان الجنوب (الماندنجو والسونينكي وغيرهم)، من حيثُ الدين والثقافة، متجاهلاً أو متناسـياً جهـود قبائل الماندنجو في نشـر الإسلام، ودور منسـا كنكن موسى في النهوض بالإسـلام وحضارته في أجزاء من غرب إفريقيا، والفتح الجهادي في مناطق الغابة سيراليون وليبيريا، حتى اشتهر الإسلام عندهم بدين الماندنجو، والقرآن بكتاب ماندنجو.

وقامـت الإدارة الاسـتعمارية قبل المغـادرة بإجراء اسـتفتاء في هذا المشـروع، وسـوّقت له بدعاية واسعة النطـاق، لكنها لم تفلح في إقناع الشـعوب الأصليين، لا السـودانيين ولا الطوارق ولا العرب، ولكن لم يمنعها ذلك من إعداد مشروعها وإجازته في البرلمان الوطني؛ بموجب قانون فرنسي ٢٧-٧-٠٥٧ بتاريخ ١٠ يناير ١٩٥٧م، ونشرته في الجريدة الوطنية الفرنسية بتاريخ ١٢ يناير ١٩٥٧م[1].

الألغام الموقوتة:

أخـذت الألغـام المدفونـة الموقوتـة تتفجر على إثر الاسـتقلال بتمـرُّدات الطـوارق، وبالتحديد في عام ١٩٦٣م، وتمت تهدئتها بجرعات نارية بأسـلوب شـيوعي غير حضاري، ثم عـادت إلى تفجُّرها عام ١٩٩٠م بصوت مدوٍّ دَوَّخ الـرؤوس وألجم الأفواه وكبّـل الأيدي الأقدام، تحت غطاء مطالب المنطقة واحتياجاتها، بعضها مطالب مشروعة ومعقولة، وأخرى خيالية.

لَقيت هذه الثورة الطارقية في أول الأمر قبولاً شعبياً فـي كلّ أرجاء البلاد، وقامت بإقناع الشـعب في الجنوب والحكومة بأن المناطق الشماليَّة مظلومة ومُهمَلة من قبل السلطات المركزية، لكن الثورة انحرفت عن خطها، وبدأت تنسج تحركاتها في منوال التعصّب والاعتداء على الأبرياء وانتهاك الحرمات[2]، وهذا ما أثار الغضب الشعبي ضدهم، وأقحم الدولة في حرب تعسّفية أراقت دماء المسلمين بلا جدوى؛ إذ خسروا أنفسهم وأموالهم، فلجأت الحكومة هذه المـرَّة إلى تهدئة الأمور بالمفاوضات السـلمية، والوعود العرقوبيـة، تتأرجح فيهـا المصالح الشـخصية للقادة المفاوضين على المصالح العامَّة للمنطقَّة وسكانها.

وقد نجحت سياسـة الحكومة المركزية إلى حدٍّ كبير في شَـقِّ صفوف الشـماليين، وأوجدت فجوة كبيرة بين القبائل، وذلك بتهميش الأغلبية السـوداء (سنغاي، فلاتة) وغيرهم، والتحالف مع العرب[3]، والتحالف مع بعض قبائل الطـوارق ضد بعضهم الآخر حسـبما تقتضي مصلحتها السياسية، حتى هوت بغرب إفريقيا عامة، وجمهورية مالي بخاصة، وشعوب الشمال بالأخص، في آبار من نار لافحة.

لعبة الأوراق:

إنَّ هذه الأزمة نتيجة لمسـيرة خمسين عاماً أو أكثر، قضاهـا صُنَّاع الأزمـات، وموقدو نار الفتـن، ومحترفو لعبـة الأوراق السياسـية، في تحقيق مآربهم السياسـية والاقتصادية، وغيرها.

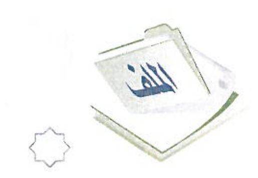
غادرت فرنسا أرض مالي قهراً، وخرجت من الجزائر

---

(١) المشروع بإمضاء René katy، ورئيس الحكومة Guy Mallet، و Hauphaitt Boigny وزير الدولة (رئيس كوت ديفوار الراحل).

(٢) عام ١٩٩٥م قابلت أحد القادة العسكريين للحركة في الرياض بحي منفوحة، وتحدثت معه في الموضوع، وبخاصة قيام غاندا كوي، فقال لي: «إن لشعب سنغاي حقاً في ذلك، لأن الثورة انحرفت حملنا السلاح لنقتل ونقتل، ولكن لا للقتال بين الشماليين».

(٣) العرب مواطنون ماليون وليسوا موريتانيين كما وهم الكاتب «سليم زبال» في مجلة العربي، العدد ٢٤٤، مارس ١٩٧٩م.



تجرّ أذيال الهزيمة والعار، ملوثة بدماء الشهداء والأبرياء، وتحالفت الدولتان المسلمتان، ونصبتا العداء للنظام الاحتلالي النصراني الغاشم، فتظاهر المستعمر بترك الأرض لأهلها ولسان حاله يقول: سأواصل الغزو الفكري والثقافي، وأخطط للعودة في صورة جذّابة تضمن لي الترحاب والقبول.

وقد وصف د. محمود مصطفى أسلوبهم ووسائلهم وصفاً دقيقاً، حيث قال: «والسياسيون الأذكياء لا يحبّون تضييع الوقت في دهاليز المذاهب والفلسفات، ويكتفون بضرب الأشخاص بالأشخاص، والزعامات بالزعامات، والرموز بالرموز»[(١)].

سرعان ما استغل النظام الفرنسي الأوضاع الاقتصادية للدولة الوليدة، ووظّف تعدُّد القبائل، والتباين الثقافي لإثارة ثورة طارقية في شمال مالي ١٩٦٣م – ١٩٦٤م، وبذلك استطاع أن يصنع من بعض الطوارق والبربر جهازاً يشارك به في الألعاب السياسية والاقتصاديَّة في المنطقة، واتخذه ورقة ضغط على الأنظمة السياسية المتعاقبة. فكلما أراد النظام الحاكم في فرنسا الضغط على مالي، أو الانتقام من نظام الحكم في مالي، حتى يضمن ولاءه له، لجأ إلى الطوارق كما فعل فرانسوا ميتران في عام ١٩٩٠م وعام ١٩٩٤م، وجاك شيراك في عام ٢٠٠٦م، وساركوزي في عام ٢٠٠٩م وعام ٢٠١٢م.

وقد نجحت فرنسا إلى حدٍّ ما في إدارة الأزمة من وراء الكواليس، والاعتماد على الحرب بالوكالة بإقحام بعض الدول الإسلامية المجاورة في القضية بصفتهم وسطاء غير محايدين، ففتحت حدودها للجهاديين، ووظّفت وسائلها الإعلامية لقضية الطوارق، واعتبرتها شرعيَّة، واستضافت مدنها مؤتمرات هذه الحركات، حتى توارى دور فرنسا نسبياً، واتجهت الأنظار إلى الدول العربية الإسلامية[(٢)]، كما وظّفت وجودهم في مناصب ببعض المؤسّسات الدولية لتحقيق أهدافها ومخطّطاتها.

أصدرت الجبهة الإسلامية العربية لتحرير أزواد العدد الأول من مجلتها (صحوة أزواد) بجمهورية موريتانيا الإسلامية في أبريل ١٩٩٠م؛ علماً بأنَّ مُنظِّر هذه الحركة (سيد محمد ولد الذهبي) أحد ربائب الكنيسة النرويجية بمدينة «غوشي»، وكان موظَّفاً في منظماتها، ولا يزال ممثلاً لجمهورية مالي يتقاضى رواتبه شهرياً؛ لأنه في كفالة النصارى!

واتخذت الحركة الوطنية لتحرير أزواد (M.N.L.A) مقرها في نواكشوط، ولا يزال موسى أغ سديد يدير المهام السياسية هناك.

واستغلت السياسة اليهودية العالمية الجهاز نفسه (الحركة الطارقية) لاختراق الصف الإسلامي، وغرس العداوة والبغضاء بين المسلمين العرب والإفريقيين، وإليك نصوص لأحد منظّري هذه الحركة، واسمه أبو بكر الأنصاري، يقول: «أمريكا تنظر للطوارق بعيون يهوديّة، وخلق حلف لأمريكا في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا يكون في خدمة مصالحها»[(٣)]، «... تَخلَّوْا عن إقليم فقير لأصحابه الحقيقيين، ومقابل مساعدات مادية دائمة، لكي يعمره أبناؤه بالتعاون مع إسرائيل وأمريكا وفرنسا»[(٤)]، «وبالتالي يتحقق الهلال السامي في القارة الإفريقية ببناء دولة للطوارق موالية للغرب وصديقة لإسرائيل، وتحقّق أمريكا نصراً في القارة الإفريقية، ويكون لإسرائيل صديق مسلم لها الفضل في بناء دولته، وتبني واشنطن قواعدها العسكرية في دولة الطوارق دون الحاجة لافتعال معركة وهمية لمحاربة الإرهاب»[(٥)]، «بينما مشروع الهلال السامي سوف يعيد العلاقة العربية الإسلامية اليهودية على ما كانت عليه قبل قيام دولة إسرائيل».

ولا أدري هل هذا الكاتب مقتنع بما يكتب حتى يصرح بذلك للمسلمين في هذا الموقع؟ أو هل يريد أن يوصل الرسالة إلى المسلمين بعدما اكتشف هذه الخطط؟ لأنه في بعض مقالاته يربط بين الحركات الطارقية والحركات العرقية الأخرى في العالم الإسلامي (الأكراد، وحركة دارفور)، ويشير إلى أن نتيجة الحكم الذاتي لدارفور وشمال مالي تساهم في إبعاد الصين عن آبار البترول

---

(١) مراجعات في أصول الدرس البلاغي، د.محمد أبو موسى/٢٣، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١ عام ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

(٢) البيان الختامي لندوة التجمّع الثقافي الإسلامي الخامسة والعشرين، المنعقدة بنواكشوط، بمناسبة ذكرى المولد ٩ -١١ ربيع الأول ١٤٣٤هـ الموافق لـ ٢١ – ٢٣ يناير ٢٠١٣م.

(٣) انظر: غوغل العربي: موقع الحوار المتمدن www.ahewar.org – مقالات أبو بكر الأنصاري، السياسة الأمريكية في القارة الإفريقية على ضوء نجاحات الهلال السامي.

(٤) نفسه.

(٥) الموقع نفسه، والكاتب نفسه، القيادة الأمريكية بين طموح الهلال السامي وسندان عقبة تسييس مكافحة الإرهاب.

والمعادن الأخرى؛ لتحل محلّها أمريكا؟!

وأيًّا كان؛ فإن الخطــة اليهودية نحو المنطقة أكيدة، كما ذكــر ذلك عبد الإلــه المنصوري موضحاً أســاليب الاختراق، وفاضحاً لها، ومُبشِّراً بوعي المسلمين الأمازيغ وتصديهم لتلك الخطط[(١)].

اضطر الإسلاميون في الجزائر إلى خلع رداء الحزب السياســي الديمقراطي عام ١٩٩٠م، بعدما حقّقت جبهة الإنقاذ الإســلامية انتصارات على الشــاذلي بن جديد، واعترف هذا الأخير بالهزيمة عبر وسائل الإعلام الوطنية والدولية، وعبَّر عن اســتعداده للتعاون مع نظام إســلامي معتدل، ولكــن انتهى الأمر بتدخل الضباط العســكريين فأُلغيت نتائج الانتخابات[(٢)].

وهنا ارتدى المتشــدّدون ثوب الحرب ضدّ الجيش الجزائــري، ثــمّ اضطروا إلــى مغادرة شــمال الجزائر، والانخــراط في تنظيم مسـلّح في الجنــوب، وتم اختيار هذه المنطقة الاســتراتيجية؛ لأنها تربط الجزائر بكلٍّ من موريتانيا ومالي والنيجر (ثلاث دول إسلامية).

وتتبنّى هذه الحركة أهدافاً، منها:

- السيطرة التامة على الصحراء، ويكون لهم سيادتها حتى لا يكون لأحد غنى عنهم فيها.

- تحويــل المنطقة إلى مــكان غير قابــل للزيارة، وبخاصة زيارة السائحين الأوروبيين.

- زعزعة أمن الــدول المعاهــدة والموالية للغرب، وبخاصة فرنسا.

- اتّخاذها منطلقاً لعملياتهم العسكرية[(٣)].

فظنَّ قصر الرئاســة أنه قادر على استغلال عناصر هذه الحركة، ولكن بعد مرور ســنوات أضاف التنظيم إلى نشاطاته التجارية نشاطاً جديداً يدرُّ أرباحاً دون رأس مال، ألا وهو «صناعة» اختطاف الأجانب (رعايا الدول الغربية)، حيث قام التنظيــم باختطاف أربعين شــخصاً، منذ عام ٢٠٠٣م حتى ٢٠١٢م، فتوجهــت الأنظار إلى قصر بماكو، تشير إليه بأصابع الاتهام بالتآمر مع القاعدة٢.

وشَنَّ تنظيم القاعدة أول هجوم على جيش مالي، وقام باغتيــال الضابط العربي لامان ولد بــو، بتاريخ ١٠ يونيو ٢٠٠٩م الساعة ٧ مســاءً، والناس يصلّون المغرب بمدينة تمبكتو[(٤)]، وأصدر أبو زيد باسم سرية الفرقان بياناً تنويرياً عن الحادثة، ووضّح أنهم يعيشــون فــي أزواد، ويفهم منه ضمنياً أنهم لا يعترفون بمالي.

وينظــر تنظيمُ القاعدة بالمغرب العربي إلى فرنســا بعيــن العداوة، ويعدُّها العدوَّ الأول في القائمة الســوداء، ويســتهدفها بعمليات عســكرية في مصالحهــا الداخلية والخارجية[(٥)].

ويصعب على فرنسا - إن لم يتعذّر - أن تستغني عن هــذه المناطق الغنية بثرواتها المعدنية والمتميزة بموقعها الاســتراتيجي، وبتعدُّد قبائلها وإن كانوا أغلبيّة مســلمة، فأرادت التخلُّص من هذه الخلية بأي وسيلة حتى يصفو لها الجو، فاســتعانت بأفراد من ذوي النفوذ بالأجهزة الأمنية والاستخباراتيَّة في الجزائر وموريتانيا ومالي.

«إياد أغ غالي» كان عضواً في جماعة التبليغ، ويحظى بثقة كثير من قادتها في مختلف مناطق العالم، وكان قائداً فــي حركات الطوارق الانفصالية منذ عام ١٩٩٠م، وانضم إلى الجيش الوطني بعد الاتفاقيَّات ضابطاً برتبة (العقيد)، يعرف كلَّ أســرار الجيش، وعمل دبلوماســياً في المملكة العربية الســعودية، ولبس لبوس الســلفيَّة، ولعلّه استطاع أن يكوِّن علاقات بشــخصيات وهيئات ومؤسّسات قبل أن تطرده السلطات السعوديَّة، وليس هذا بعيداً عن شخصية ذات طموحات عالية ومتعدِّدة، وقد بدأ دوره ينكشــف بعد هجوم جيش مالي والقوَّات الفرنسية على شمال مالي، «إنَّ زعيم جماعة أنصــار الدين إياد أغ غالي كان يتولّى مهمة تحضير الأجواء للتدخّل الفرنســي، وذلك باقتحامه مدينة (كونا Kona) الفاصلة بين شمالي مالي وجنوبه»[(٦)].

وأمَّا حركة التوحيد والجهاد بغرب إفريقيا؛ فيقودها العرب الموريتانيون وبرابرة صحراويون (الصحراء الغربية المغربية) مقيمون في الجزائر، وأفراد من العرب الماليين،

---

(١) راجــع: عبدالإله المنصوري: الأمــازيــغ يتصدون للاختراق الصهيوني، قناة الجزيرة، الثلاثاء، ١٠/١٠/١٤٣٣هــ الموافق ٢٨/٨/٢٠١٢م.

(٢) استمعت إلى صوت واشنطن ١٩٩٠م بعد الأحداث الجزائرية، وقال أحد المعلقين: إن النظام الجزائري نحّى الإسلاميين المعتدلين، وأعطى المتطرفين فرصة سانحة لحمل السلاح.

(٣) serge Daniel ,AQMI L'industrie de l'enlèvement, Fayard ٢٠١٢,P١١,١١٣.

(٤) serge Daniel. P ٢٤١.

(٥) نفسه، ص ١١.

(٦) الشروق الجزائرية، الأحد ٢٧ يناير ٢٠١٣م.



وهؤلاء العرب يحاولون عرقلة الانتخابات وتأجيل موعدها؛ لأن انتهـاء فترة (آمد توماني تـوري) تعطيل لمصالحهم الشخصية.

فأطراف هذه اللعبة هم:

- حركـة (M.N.L.A): طارقية علمانية انفصالية، تسـتغلها دول غربية ودول مجـاورة لمالي، ويحاول قصر الرئاسة استغلالها!.

- حركـة تنظيـم القاعـدة: مبادئ ثابتـة، أهداف مرسومة، يحاول القصر استغلالها.

- حركة أنصار الدين.

- حركة التوحيد والجهاد.

اجتمعـت هذه الأطراف في إشـعال نـار الفتنة في جمهورية مالـي، وفتّحـت عليها أبواباً من المشـكلات والأزمات المتعددة، وانتهت اللعبة لمصلحة فرنسا!

ثانياً: الآثار الدينية والاجتماعية للأحداث:

نجمـت عن هذه الأحـداث آثار يُخشـى أن تتفاقم وتأخذ أكثر من حجمها فيسـتغلها العـدو، ولذلك أعتقد أنها تسـتحق أن تُدرس بمنهجية علمية، وبمنظور إسلامي يشخّص الأخطاء لا لذاتها بل لتقديم حلول لها.

على الرغم من كثرة الميادين التي أصابتها تلك الآثار، فإنني سأقتصر على ميدانَين يحظيان عندي بأهمية، هما الميدان الديني؛ لأني مسـلم، جعلـت الدعوة في مقدمة أولوياتي اختياراً وإرثاً[1]، وأنا مسـؤول أمام الله، فلا بد - إذاً - من أن أسهم في معالجة المشكلة حسب استطاعتي، والآخر هو الميدان الاجتماعي؛ لأني جزء لا يمكن تجزئته من منطقـة الأحـداث، يربطني بها وبمختلف شـعوبها علاقات لا تنقطع، وفي الواقع يصعب التمييز بين القضايا الدينية والاجتماعية للتداخل الشديد بينهما، ولكن بقصد التيسير سأحاول تصنيفها إلى آثار دينية، وآثار اجتماعية.

إن الشعب المالي بصفة عامة، وقبائل الشمال بصفة خاصـة، ينتظرون من العلماء أن يقومـوا بدورهم الديني والاجتماعي الذي يُعدُّ أساس الإصلاح المنشود.

آثار الأحداث في الميدان الديني:

تركت الأحداث في مالي آثاراً إيجابية، وأخرى سلبية، في الميدان الديني، نوضحها على النحو الآتي.

الآثار الإيجابية:

- اللجوء إلى الله: هذه الأحداث بمثابة ابتلاء لشعب مالي، وقد عرفوا قدرهـا، وأن لا قدرة إلا لله؛ فتضرَّعوا إلى اللـه المولى بقراءة القرآن والدعاء، يقول المواطنون: لم يُقرأ القرآن في الدولة أكثر من هذا العام.

- تقدير العلمـاء: ازداد تقدير الماليين لعلماء الدين لموقفهـم الإيجابي إزاء هذه الأحـداث؛ إذ أثبت العلماء حبهـم لدينهم ولوطنهم، وحرصهم الشـديد على مصالح العباد والبـلاد، وقد كانـت توقّعات القيادة السياسـية أن يكـون خريجو الجامعات الإسـلامية وراء الأحداث أو متعاطفين مع المشـاركين فيها، وذلك كمـا أوحى إليها شياطينها منذ ١٥ عاماً[٢].

- زيـادة الثقة بالمجلس الأعلى الإسـلامي وتأييده: كسـب المجلس الأعلى الإسـلامي ثقة المسلمين بسبب دوره الفعّـال فـي معالجـة الأزمة، وصار مـن الجهات المعتمدة لإيصال المسـاعدات إلى المتضررين، وفوَّضت إليه السلطة السياسـية ترتيب مسيرة المفاوضات، فقام بإجراء بحث علمي للموضوع، وختم بتوصيات ومقترحات، وقد أدى المجلس دوراً فعّالاً لإحلال الأمن والسـلام في الدولة منذ بداية الأحداث إلى الآن.

- كشـف العدوان الغربي للمسلمين ومؤامراته: تبيَّن لكثير مـن الماليين، وللمتابعين من معظـم دول العالم لأحـداث الأزمة فـي مالـي، أنَّ دولاً غربيـة تقف وراء الأحداث بالتخطيط والتمويـل، وقد ندّدت جمعية حقوق الإنسـان في مالي بموقف سويسـرا، حيث حاولت إعادة تنظيم مقاتلي الطوارق الفارين إلى بوركينافاسو وموريتانيا بعد أن سلّط الله عليهم الإسلاميين.

الآثار السلبية:

- إثارة الحساسـية نحو العرب: إن علاقة الشـعب بثقافته علاقـة تلازمية لا يمكن الفصـل بينهما، واللغة العربية وعاء الإسـلام، وتعد العلوم الإسـلامية جزءاً من الثقافة العربية، وفهم اللغة العربية من الوسـائل اللازمة

(١) علاقتي التاريخية بالمجتمع تحت الدراسة، علاقة دين ودعوة منذ عهد أسكيا محمد - ملك سنغاي -، فاستوعبنا مجتمع سنغاي حباً للإسلام، فذبنا فيه استجابة لله سبحانه وتعالى.

(٢) أستاذنا عبد الله جارا يقول: إنه استمع إلى برنامج لإذاعة فرنسا عام ١٩٩٤م، يدعو السلطات في غرب إفريقيا الفرنسية إلى الحذر من خريجي الدول العربية؛ لأنهم سياسيون، واستيعاب الذين درسوا في داخل الدولة. وقد استجاب نظام مالي آنذاك، وعيَّن كثيراً من حاملي الشهادات الثانوية الأهلية في الوظيفة العمومية، وقام بتهميش حاملي الشهادات الجامعية من الدول العربية.

لفهم الدين الإسلامي، ومحبة العرب تستلزم وجود دافعية إيجابية نحو تعلّم لغتهم، وكره العرب يستدعي دافعية سلبية ضد لغتهم فثقافتهم، كما هو الموقف والشأن من أيّ شعب.

ومخططو هذا المشروع الصليبي يستهدفون ذلك بالدرجة الأولى وإن غلّفوه بغير غلافه[1]، «وقد حذّر أحد الكتاب الغربيين (برايان) من خطورة الحركة الإسلامية في الجزائر، ويؤكّد ضرورة التدخّل الغربي في الصراع، ويتخوف من عواقب الانتصار الإسلامي»[2].

وقد أبرزوا براعة وقدرة في التسويق له، وورّطوا كثيراً من الهيئات الإسلامية بل الدول الإسلامية عن طريق شخصيات قادرة على التأثير في أصحاب القرارات، وتخدم هذه الشخصيات الفكرة - عن قصد أو عن غير قصد - بتقديمها للمسلمين مشوّهة ومزيفة، والترويج لها عبر أبواق بشرية تردد صدى ما نُفخ فيها.

إنّ أشدّ المواقف مرارة وغرابة عندما تُلصق التّهم بأهل السنّة والجماعة تحت مسمّى «الحركة السلفية».

وقد بادرت السعودية منذ عام ١٩٩٤م، ولا ننسى الدور الإيجابي لكلٍّ من إمام المسجد الحرام الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (رحمه الله) الذي لم يكتف بالكتابة وبيان الحقيقة، بل قام برحلة دعوية إصلاحية إلى المناطق المعنيَّة، والتقى بشعوبها عام ١٩٩٥م بأمر من خادم الحرمين الشريفين.

ومدير رابطة العالم الإسلامي الذي وجّه دعوة إلى رئيس الوزراء الحاج إبراهيم كيتا، وأعطى فرصة لتوضيح الحقائق للمسلمين، بل إن شعب مالي يقدّر جهود خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز أيام كان وليّاً للعهد عام ١٩٩٥م في استقرار البلاد.

- إلصاق التهم بالتيار السلفي: لقي التيار السلفي معارضة شديدة من التيار الصوفي والعلماء التقليديين قبل الاستقلال وبعده حتى ١٩٧٩م، وقد ساعدت زيارة كلٍّ من إمام المسجد النبوي الشيخ عبد العزيز بن صالح، وإمام الحرمين الشريفين الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (رحمهما الله) لجمهورية مالي على التفاهم بين المسلمين في مالي، وتضييق دائرة الخلاف بين المسلمين، والحيلولة دون فتنة الطائفيَّة، بل وتوحيد كلمتهم ضدَّ الحكومة وغيرها، في مواقف كثيرة يجدون فيها مساساً بدينهم الإسلامي، وما موقفهم عام ٢٠١١م من قانون الأسرة ببعيد!

وبعد أن كان مصطلح (الوهابي) هو التسمية الوحيدة المستخدمة للسلفي (السنّي) انقلب الميزان لمصلحة أهل السنّة والجماعة، حيث ظهرت الحقائق لمسلمي مالي، وعرفوا أن خلافهم مع التيار السلفي صوري في أمور كثيرة، مردُّه - أحياناً كثيرة - وجهات نظر واجتهادات في الفروع، وناتج عن عدم الوعي؛ فاختفى مصطلح (وهابي) نسبياً، وأصبح الناس يُطلقون عليهم أهل السنّة، بل إنَّ كثيراً ممن كانوا يُعادُون السلفيين انضموا إليهم أخيراً.

ومن الأمثلة التي عاينتها مدينة «موبتي»، والتي عشت فيها أيام الصبا، كادت الأحجار تشج رؤوسنا في مسجدنا وفي دورنا جزاءً للصورة المشوّهة لمصطلح (الوهابية التي كانوا يُطلقونها علينا)، وفيما بعد شهدت هذه المدينة تحولاً كبيراً، فعندما عدت إليها بعد التخرج ١٩٨٩م وجدتها أصبحت مثالاً للتفاهم والتقارب بين المسلمين؛ لأن الخلافات لم تكن في الغالب عقدية، بل كان أكثرها فقهية.

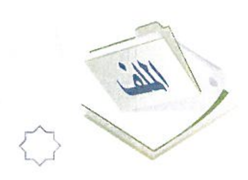
وقد انتهز أعداء التيار السلفي هذه الأحداث لإعادة مصطلح (وهابي) إلى الساحة بقصد الإساءة والاستفزاز والتحريض عليهم، وحاولوا افتعال علاقة بينه وبين حركة أنصار الدين، إما بسوء النية وإمّا جهلاً لتشويه صورهم، وقد وشي بهم إلى السلطات، فقامت السلطات الأمنية بحملة تفتيشية شملت أحد عشر مسجداً لأهل السنّة، بما فيها مسجد محمود ديكو رئيس المجلس الأعلى الإسلامي[3]، وانتهت بتبرئة تلك المساجد وأهلها.

- التنفير من المدارس القرآنية بتشويه صورها: بُذِلت مجهودات كثيرة للقضاء على المدارس القرآنية،

(١) انظر: د. محمد علي التسخيري: كتاب صحيفة الدعوة الإسلامية، ص ٣٢.

(٢) حينما اندلعت فتنة الطوارق عام ١٩٩٠م - ١٩٩١م كنّا جلوساً في مصلّى الجامعة الإسلامية بساي بعد صلاة المغرب وننتظر صلاة العشاء، فخاض الأساتذة في الموضوع، من بينهم إداري طارقي يسمّى الفاروق، فقال: إن هؤلاء الشباب ينفّذون مشروعاً يجهلون أهدافه. وقال: إنه اطّلع على هذا المشروع أيام إقامته في ألمانيا، ويقصد منه وقف الزحف الإسلامي القادم من المغرب العربي إلى دول الساحل جنوب الصحراء.

(٣) انظر: جريدة Proces Verbal . أسبوعية، العدد ١٩٦، تاريخ ٢١ يناير ٢٠١٣م.



وبخاصة المدارس التقليدية، وقد وفَّرت هذه الأحداث فرصة مناسبة للتنفير منها، حيث عرضت قناة التلفاز الوطنية نماذج من تلاميذ المدارس القرآنية الذين استقطبتهم الحركة الجهادية المسلّحة، وعرضت شاباً في ١٦ من عمره مساء يوم الجمعة ٢٠١٣/٠١/٢٥م، بعد نشرة الأخبار الرئيسة، وآخر في ١٨ من عمره يُدعى أبو بكر باري، وذلك يوم الأحد ٢٠١٣/٠١/٢٧م، وعلّق الناطق الرسمي بأن معلّمه باعه بثمن زهيد للإرهابيين.

– إتاحة الفرصة للتنصير: تعمل الهيئات الإسلامية في مالي بإمكانيات ضعيفة وقليلة في عددها مقابل الهيئات الغربية والتنصيرية، وعلى الرغم من مبادرة المنظمات الإسلامية بتقديم دعم للنازحين والمتضررين في المناطق المحتلة فإن الساحة خلت لغيرها كالصليب الأحمر الدولي، ومنظمة OXFAM وحقوق اللاجئين.. إلخ، حيث تفسح تلك المنظمات المجال للتنصير، وقد يكون لمشاركة الهيئات الإسلامية في إعادة المهجَّرين إلى ديارهم، ودعمهم ماديًّا، وكفالة الأيتام والأرامل، بعد الحرب تأثير قوي في استعادة دورها الدعوي لمقاومة التنصير.

– الولاء لفرنسا: لا يكون ولاء المسلم إلا لله ولدينه، وقد أدت الأزمات التي عاناها شعب مالي، من مؤامرات وتكالب الأعداء، وتقاعُس الأحبَّة، حتى صاروا كالأيتام على مأدبة اللئام، إلى تولّد روح القبول لفرنسا، والترحاب بتدخلها لحل الأزمة، وأصبح علم فرنسا يرفرف في كلّ أنحاء الجمهورية منافساً لعلم مالي، وخصوصاً في المدن المحرّرة، وبدأت علامات الولاء المذموم تظهر في التسمية، حيث سمّى أحد المواطنين ابنه باسم (أحمد فرانسوا هولند كوليبالي Amadou François Holland Coulibaly)[1].

– سلب الإرادة الحرة من حكومة مالي: فقد أدت تلك الأزمة، وما ترتب عليها من تدخّلات خارجية لدول لها أطماع وأجندات خاصة، إلى التحكم فيها، وتوجيهها، مما أفقدها حرية اتخاذ القرار النابع من مصلحتها ومصلحة شعبها والأمة الإسلامية.

ثانياً: الآثار الاجتماعية:

تنتهي هذه الأحداث وتبقى آثارها جاثمة على المجتمع، ومنها:

– فقدان الثقة بين قبائل المسلمين: مجتمع شمال مالي المسلم مجتمع صحراوي قبلي متماسك، تسود فيه العلاقة الوديّة وتبادل الاحترام، وتوجد بين القبائل معاهدات وتحالفات تاريخية، وما كان بحسبان سنغاي وفلاتة أن يكونوا مستهدفين من قبل بعض الحركات المنتسبة للطوارق والعرب، بل يعتقدون أن الأمر مجرد تهديد للحكومة المركزية لجلب مصالح شخصية كالعادة، لكن بعد خروج الجيش المالي والمؤسسات الحكومية ومرافقها اتضحت الحقائق عبر ممارسات واقعية، ارتكبتها عناصر شاذة من تلك الحركات، من قتل للأنفس، وانتهاك للأعراض، ونهب للأموال وتخريب لها.. إلخ، كما ظهر عبارات شفوية وكتابية من بعض تلك العناصر الشاذة تصرّح بأنَّ الهدف الأساس هو الانتقام من القبائل الأخرى غير الطوارق والعرب، علماً بأنَّ معظم مرتكبي الجرائم معروفون بالاسم والنسب لدى الأهالي في أغلب المدن.

إنَّ القلوب إذا تنافر ودُّها   مثلُ الزجاجة كسرها لا يُجبَر

وعلى الرغم من المحاولات المتكررة من قادة الأحداث لاستعطاف الناس، عبر اتصالات تليفونية، واتصالات بوفود الشماليين في المفاوضات الخارجية؛ فإن السؤال المتوقّع على ألسنة القبائل المضطهدة هو: هل يتوقع هؤلاء أن نعيش معاً أيضاً؟ كيف يمكن أن نعيش معاً؟

– تحطيم البنية الأخلاقية للمجتمع: على الرغم من الغزو الثقافي لهذا المجتمع؛ فإن الدين والنسب لا يزال لهما دور فعال في الحفاظ على الشرف، ولكن لا شك أن وجود ٣٧٥٠٠٠ ألف شخص[2] في مخيمات اللاجئين في داخل مالي وخارجها سيترك بصمات العار، إنّ ضنك العيش منبع كل شرٍّ، فضلاً عن انتهاكات الأعراض التي قام بها عناصر من تلك الحركات.

وقد لا نفاجأ بالآثار السيِّئة على الأخلاق في ظل

(١) انظر: جريدة Procés Verbal ، أسبوعية، العدد ١٩٦، تاريخ ٢١ يناير ٢٠١٣م.

(٢) من إحصائيات منظمة OXFAM، جريدة l'indicateur، العدد ١٤٢٠، ٢٠١٣/١/١٨م.

تدخّل القوات المتعددة الجنسية إفريقيّة وغيرها، وفي ظل سيطرتها على مناطق المسلمين، حيث تفتقد تلك القوات المتعددة وحدة الانتماء وقداسة الأخلاق.

- الإعجاب بالفرنسيين وتقليدهم: إنَّ هؤلاء الأطفال، والشابات الشبّان الذين ذاقوا الهوان، وعاينوا الاعتداء، وانتهاك الشرف بالاغتصاب الجماعي أمام الزوج والأخ ليشاهد ما يُفعل بحريمه[1]، وتسويغ الحرام بالزواج الإكراهي من بعض مسلّحي تلك الحركات، سيُعجبون في المقابل بالجنود الفرنسيين الذين دافعوا عنهم، وردوا لهم حريتهم المغتصبة، وسيضعونهم في مقام الأبطال ويقلدونهم.

- إغلاق المدارس لمدة سنتين دراسيتين: إنّ هذه الفترة الزمنية تعدّ خسارة على مستقبل المنطقة وعلى أبناء المسلمين؛ فالأطفال هم مستقبل الأمة.

- هدم البنية التحتية والاقتصادية للمنطقة: إذا كانت جمهورية مالي في طليعة الدول الفقيرة فإن المناطق الشمالية أسوأ حالاً من غيرها، فهل كان ينقصها أيضاً أن يتولى بعض أبنائها خرابها بأيديهم! فقد خربوا المرافق الحكومية وغير الحكومية، من إدارات ومدارس، حتى المستشفيات، ونهبوا الممتلكات الخاصة من المتاجر والمخازن، حتى أثاث البيوت سرقوه.

ثالثاً: الحلول المقترحة لمنع تلك الآثار أو تخفيفها:

لا تخلو الحياة من ابتلاءات ومشكلات، بل لا تحلو بلا مشكلة يسعى الإنسان إلى حلّها، نسأل الله تعالى العافية للمسلمين، إنّ شعب مالي المسلم يتفاءل كثيراً، وذلك لإيمانه الراسخ بأن الله يبتلي عبده ليتضرع إليه بالدعاء، وقد كان كذلك، وكما يعتقد الشخص المالي المسلم بأن العسر إرهاص لليسر، والشدة مقدمة للفرج.

وقد انعقدت مؤتمرات واجتماعات ولقاءات محلية ووطنية للبحث عن حلٍ نهائي لهذه الأزمة، والعمل على تجنّب تفاقم آثارها.

ومن توصيات تلك اللقاءات:

- تكوين لجنة وطنية شاملة لكلّ الأجناس والقبائل تحقّق في الأحداث، وتحدّد الأطراف المسؤولة عن الفساد، ومحاكمة أكابر مجرمي هذه الأحداث.

- التوعية الشاملة للمواطنين وتحذيرهم من تصفية الحسابات ومحاولة الانتقام، وترسيخ الثقة لديهم بأن المحكمة هي الجهة الوحيدة لإقامة العدل وتسوية الخلافات.

- تفادي المغالطة في القضية، فليس كلّ الطوارق ولا كلّ العرب متمردين، وليس كلّ المتمردين (المسلّحين) من هذين الجنسين، وكون أكثرهم وقادتهم منهما لا يسوّغ التعميم، بل إنّ ممّن قام بهذه الأعمال أفراداً من أجناس أخرى، ومعظم الطوارق والعرب ضحايا يعيشون في مخيمات اللاجئين[2].

- توسيع دائرة الشورى، واللامركزية، والشفافية في الحكم والإدارة.

- انعقاد حوار وطني شامل للمصارحة فالمصالحة.

- إحياء المعاهدات بين القبائل في المناطق الشمالية، وإعادة بنائها على أسس متينة.

- قيام علماء الدين بمهمتهم الإصلاحية بموضوعية، فيراعون الله في كلّ تصرفاتهم، ويجعلون مصلحة الأمة الإسلامية نصب أعينهم.

- مشاركة علماء الدين في اتخاذ القرارت المتعلقة بالمنطقة[3].

خاتمة:

إن الإسلام دين يحترمه العقل، وتطمئن إليه النفس، وعلى المسلم أن يمثّل دينه بأخلاقه حتى يُحترم وتطمئن إليه النفوس.

إن المسلمين في غنى عن تقسيم دولهم وشعوبهم، بل يجب عليهم أن يمهّدوا الطريق لتكون أمتهم أمّة واحدة، وعلى المسلمين دعوة غير المسلمين، المجاورين لهم أو المقيمين معهم في دولهم، بالحكمة والموعظة الحسنة والأخلاق المؤثّرة.

---

(١) أدلت امرأة تمبكتوية بشهادتها، وذكرت أن ثلاثة أشخاص هدّدوا زوجها بالسلاح، فاغتصبوها قائلين للرجل: انظر ما نفعل بزوجتك، تلفاز مالي، نشرة الأخبار، ٢٠١٣/١/٢٥م.

(٢) مقابلة تلفزيونية مع السيد أمادو توغو، رئيس جمعية قبائل دوغون ٢٠١٣/١/٢٥م، مقابلة تلفزيونية مالك الحسين ميغا رئيس تجمعات الجاليات الشمالية في العاصمة، ٢٠١٣/١/٢٨م، مقابلة تلفزيونية مع السيدة أم ميغا رئيس اتحاد الجمعيات النسائية في مالي، ٢٠١٣/١/٢٩م.

(٣) هذه الأخيرة من توصيات ملتقى مدينة كيدال ٢٠١٠م، شاركت فيه كلّ القبائل، والهيئات، والجمعيات الشمالية.

